

المحيط الصاحب

(قصة اجتماعية)

بقلم سمير محمد

قال صاحبي عبد الرحمن وهو يرتشف رشفة من قدح الشاي :

أراك يا صاحبي قد عانيت أخيرا بكآبة القصة المستمدة من صميم المجتمع ، وفي الواقع أن هذا النوع هو المطلوب في هذه الأيام التي نرى فيها بوادر نهضة إصلاحية ، ونرى فيها مباحث الاجتماعيين تعمل في جسم الأمة لإبرائها من جراحها . فالقصة لها أكبر أثر في الإرشاد إذ أنها نتيجة عرض دقيق ومرآة صادقة لما يدور في صدور الناس من أحاسيس ، وفي النهاية هي خير واعظ بنتائجها الصحيحة .

سكت صديقي مكتة قصيرة ، ولم أكن أعهد في صديقي أنه يهتم بالأدب قط ، فقد تزامننا أيام الدراسة الثانوية ثم افترقنا هو إلى قريته وأنا إلى استكمال دراستي . وانقطعت صلاتنا زمتا طويلا حتى تلاقيا أخيرا ومصادفة عند أحد أصدقائي في الريف وكان من بلدة صديقي ، فدعاني عبد الرحمن لقضاء يومين في ضيافته فقبلت فقد كنت مشوقا إلى تعرف أخباره وتجديد صداقته التي كنت أعزبها ، لما هو عليه من دماثة الطبع وجميد السجايا .

واستأنف صديقي حديثه فقال :

” أعلم جيدا يا صديقي أنك في شوق إلى معرفة أخباري ويعز علي أن أقصر في إجابة رغبة لك ، سأقص عليك قصتي عساك تجد فيها مادة طيبة لإحدى قصصك الاجتماعية التي كنت أتتبعها باهتمام ، وعسى أن يجد فيها الناس عبرة وعظة .

اعتدل صديقي عبد الرحمن وبدأ يقص قصته فقال :

” قضت والدتي وأنا في الخامسة من عمري وتركيني وشقيقي التي تصغرنني بسنتين تنامس المطف عند الناس فلا نجد بعد أن فقدنا العطف والحنان بفقدانها . وكان والدي رجلا ضعيف الإرادة لا يهتم شيء في الحياة أكثر من ابتاده عن كل ما يلقى إليه ويمكر صفوه ، وفي سبيل ذلك لا يبخل حتى بأولاده . وكان أن تزوج بأخرى بعد وفاة والدتي

بأشهر قليلة، وأرسلني إلى المدرسة، فأتممت دراستي الابتدائية والثانوية، وكادت أتمم دراستي العالية وكاد أبي يوافق على ذلك لولا أن وقفت زوجته عقبة كؤوداً في سبيل ذلك. فرحلت إلى بلدتي هذه التي تراها، أباشر زراعة الأرض وأعمل جنباً إلى جنب مع الفلاحين في المزرعة واستمع إلى أحاديثهم الساذجة وأقاصيصهم الخيالية البريئة. وكنت أجد فيهم وفي القرب إلى الله وزيارة قبر أبي خير سلوان في حياة الوحدة التي أحيها.

ولم تكن القاهرة بزخارفها وملاهيها وأضوائها لتجتذبنني فقد كنت أسافر إليها على مضض عندما يطالب إلى والدي ذلك حتى أؤدي له مهمة أو أنجز له طلباً. فقد كنت أمقت المدن وما فيها بعد أن قاسيت على يد امرأة أبي المتحدية ما قاسيت، وبعد أن رأيت من قسوتها أشد ألوان العذاب. وكان الدفاع الأكبر الذي يغريني بالزيارة رؤيتي لشقيقتي الحام في الوحدة التي كانت تحبني في هذه الحياة وتعطف علي وتحنى لو أعيش إلى جانبها كما كانت لانفتاً بين الحين والحين تكاتبني لتستطلع أخباري وتقصي الكثير من أحوالي.



ظلمت أيدش بين بدائع الفنان الأعظم، استمتع بما وهب الله الريف من فتنة وجمال، فأقضى يومي بين هذه المفاتن لا أحس تعباً في العمل ولا إرهاقاً في الحياة. كان يومي يبدأ في ساعة مبكرة جداً عند ما أحس بحركة الفلاحين وهم يسرون مع بهائمهم إلى الحقل وهذا ينادي على ذلك طالباً منه أن يعيره بقرته أو دابته فيجيبه الآخر إلى طلبه في ترحيب وكرم. ويسرون إلى الحقل تلوح على وجوههم علامات الإيمان العميق والرضاء بما قسم المولى لهم من رزق، فغنيهم حامد لنعمة الله، وفقيرهم شاكر لا يطلب إلا رضاه، ثم ترسل الشمس ضوءها الذهبي تحميمهم، ويرزق الطير مرحباً بهم، فتشرق نفوسهم وتشرح صدورهم، وأحس في أعماق نفسي بجمال الحياة، وعظمة الوجود، وأرى في الريف الجنة التي وعد الله بها عباده المحلصين. فارتدى ملابسني وأؤدي واجبي نحو الخالق وأخرج إلى الحقل أنوغل فيه واستنشق بقوة ملء رئتي الهواء النقي المشبع برائحة الطبيعة الساحرة فيدب النشاط إلى جسمن وأقبل على العمل في نشوة وفرح وأنا أردد: ما أجمل الحياة.

ومن بعيد تصل إلى سمعي أناشيد الفلاحين الجميلة منغمة بنغم رائع تردده أصوات قوية كلها فتنة ورجولة، وهم في جلابيبهم الزرقاء زرقة السماء مقبلون على أعمالهم في الحقل بروح الحملة والاستبشار فرحون بما من الله عليهم به من محصول، متعاونون مع بعضهم في المراء والضراء متضامنون في فرحهم وشقايمهم متجدون في أفراحهم وأحزانهم.

فإذا انقضى اليوم رجع الفلاحون من الحقل زرافات ووحداً وهم يحملون أدواتهم فيدخلون بيوتهم مع بهائمهم وأهالهم ليتناولوا جميعاً طعام العشاء. ثم يخرج الرجال إلى مستدامهم

تمت شجرة الجوز الكبيرة حيث يتعاطون أكوام الشاي الأسود ، فاذا انفض سائرهم أتوا إلى منازلهم ليريدوا أبدانهم قليلا حتى الصباح فيسألتوا برأىهم من جديد .

كنت وسط هذا الجمع مهالما وتابذا ، أبذل جهدي في سبيل تنويرهم بما تعلمت ، وأغم الفرصة لأسترشد بأرائهم القيمة وتجاربهم المفيدة ، وأنا بين كل هذا وذلك سعيد وراض .

وذاث يوم كنت أجلس وسط الفلاحين في الحقل أراقبهم وأعمل على إدخال السرور على قلوبهم النقية وإذا بخمير من خفراء القرية يدعوني لتلبية نداء الليفون بمكتب العمدة ، فذهبت مسرعا وإذا بإدام شقيقة هي المتكلمة ، وهي ترجوني وتستحلفني بأمر ربحها الله . أنت أزورهم في القاهرة لأجضر عيد ميلادها ، وتاشدن أن أحضر إلى القاهرة كي تشبع حقا بملك المناسبة .

لم أملك ساعها إلا إجابتها إلى ما رغبته فيه ، وهكذا فهمت هي مني وأنا متردد وبين موافق ورائض وقد صور لي الخيال أي تقف أمامي وتشير إلى أن اذهب .

لن أطيل فقد سافرت إلى القاهرة فقابلتني إلهام على المحطة وكان الفرح بلقائي يتبدى في كل حركاتها ، وكانت هي الوحيدة التي استقبلتني بشاشة ، فقد أقيمت من أهل المنزل تقورا واجتهازا وزراية .

تمحلت ما لقيت في سبيل شقيقة وحتى لا أغضبها يوم عيد مولدها . ولما حل المساء رأيت المنزل قد انقلب رأسا على عقب وازدان بالزهور والياحين ، وأخلى البهو الكبير وأعد الضالون ، وبالجملة فقد بدا البيت كأنه شعلة من نار يتلألأ بالألوان الواججة الساطعة والأضواء القوية الملتجة التي تشع على المدعوين والمدعووات الذين بدأوا يفدون على المنزل والذين أخذوا يخاضرون بعضهم البعض ، هذا يرافض زوجة ذلك وذلك يرافض شقيقة هذا . وتعمل "الكوكيتل" مغفولة في رعوس المدعوين فتابل هذا على ذلك واعتنى الشاب من فرط سكره المقعد وجمل يفاضله كأنما هو حسناء ، وبالجملة كان الحفل أكبر شاهد على مصرع الأخلاق والأعراض . وكان أبي وزوجته يشاركان المدعوين تهريجهم وضجيجهم وصخبهم فتألمت ونكصت على عقبي محسورا أنشد دواء نقي من إحدى الشرفات البعيدة عن الضوضاء .

استلقيت على مقعد طويل وألقيت برأسي إلى الخلف ، وأعلمت عيني على مئات من الفكر ، والصور الخلية التي رأيتها تعدو أمامي متراحة كسكان مدينة حافة ، أخذ منهم الرعب فانطلقوا هارين .

تذكرت إلهام وقلت في نفسي : أين هي ؟ فقد اختفت من بين ذلك الجمع الخافل ولم أعد أراها . وإذا بها تفتح الباب بهدوء ، وتندلف يجسدها الأنيق الرشيق وهي تترخ من السكر ، ووجهها الشاحب الحزين يتقسمه فرط الألم . فهيرعت إليها وكلمة "أنت؟" تدفع من في سريفة مبهوفة كظفلة طروب انطلقت إلى أترابها تلعب ، وأخذتها إلى وضفعتها

كأنما أحبها وأجاستها ... وجدّدت فيها بعينين فيهما لبيب أزرق خافت ، ففتحت شديها
عن ضحكة خشنة أشبه بالحشرة ، وليت صامته كليل أنحس في صحراء مهولة ... ووثبت
دمعتها تصرخ بصمت حين اختفت الكلمات في فمها ، فعصر قلبي بكاؤها حتى كاد أن يسحقني
وقلت أحدثها ، وأنا أجز الكلمات من في كسرب من عجائز مقعدات فانيات :

— هذا الأب الباغي ... هذه الزوجة المستهتر ... وهذا الفجور والمهر ... وهذه المذابح
الأخلاقية ... لقد رضيت بما قدم لي الله وعشت في الريف هائبا بين النفوس الشريفة
والقلوب الطاهرة ... بعيدا عن هذه الأنواع المنحطة من البشر ... بعيدا عن هذه الوجوه
البخالحة ... والقلوب الموصدة ... لماذا ؟ لماذا طابت الي أن أحضر وأرى بعيني ما تسمت
منه النفوس الحساسة وغير الحساسة .

... ووثبت من مجلبي كالقذيفة وانطلقت أحوم في أرض الشرفة كنمرقبي سقط في نبع ،
ثم التفت إليها بغتة ، وهتفت بها بهتوسة :

ففهمت ، ونكست رأسي الجميل كعلم مهين ، ولا كت الكلمات ببطء قائلة :
— لقد أفنت نصف وجودي كيما أحمل اليك النصف الآخر ...

فولدت صائحا :

— انك تمزقيني ... انك تنهش قلبي ... تكلمني ... أوضحي .

فقلت بأسي : لقد تحطمت أنا أيضا ... لقد فقدت كل شيء ... لقد فقدت شرقي ...
تحت ستار الاغراء بالزواج ... وكان الجاني هو شقيق زوجة أبي ... هذه الليلة ... وقد هيا لي
أن أتناول كأسا من السم الذي يشربونه فتعاطيت الكأس ولم أدرا الا وأنا مضرجة في دماي
أحاول جاهدة أن أتنبه إلى نفسي فلا أستطيع ...

انطرحت على أحد المقاعد بجدار يتداعى ، وبران البصم علينا حتى لكأنه صفائح من فولاذ
فقامت الهام واقربت مني ، وهي لا تكاد تني من أنا أومن هي ، فالتفت إليها ، فاذا وجهها
كساحة حرب بعد المعركة !

... فهمست لي ولصوتها عمق العدل وهدوءه :

— لماذا لم تأخذني معك ... لماذا تركتني هنا ... بين أحضان الجريمة والفساد ...
لماذا ... ولماذا لم تتفدني في بادئ الأمر من هذا الجو الموبوء ... من هذا المحيط الصاخب ...
أعرضت عنها وقتت إلى آخر الشرفة وأنا أقول :

— ترى ... هل بعد هذا موضع لالم ... أو لخيال ، أو لجنون ! ؟ ...

ان دماغني ليدور ويدور حتى ليكاد ينفجر ... وان أعصابي لتوتر كأني غضبي اشتد
عليها اللظى والأسار ، وان كياني بأسره ليستحيل إلى جريمة هائلة ولكن متعددة ...
يا لرحمة الله ! ...

أنت أيتها الملك الطاهر ... يعتدى عليك شيطان من هرمة المدينة الزائفة ... الا ما أمتع
دوى الطبل يصخب مع أذن الباي ... بل ما أرشق باقة الرهر في كومة الأقدار ... وما أتق
حزمة العوسج في الزهرية الرقيقة ! سخف وعار ، وجنون ...

اقتربت منها فرأيت أشلاء الألم السامى ترافص في مقلتها : فأخذتها الى كوجيدلى
عليل أعانته ، فأفخ فيه من روجى .

الترمت الصمت لحظة ، ثم التفت إليها ، فرأيت في عينها خبرا جديدا ، فهما أمل رشيق
يتهمض من بين الأشلاء والدماء يقول :

— إذن فلتهرب الى الريف ... الى أبعد من ذلك ... الى بلاد صحيقة ، الى غير هذه
الأرض ... أمحتلك يا أنحى بحق أمنا الطاهرة رحما الله ... أقمذ أختك المسكينة ، أختك البريئة ...
أختك التى جنت عليها المدينة الفادرة .

وأجهشت في البكاء ، وتعلقت بى وأنفاسها تصف وفي وجهها قداسة رائعة ، وفي
عينها بطوية قوية ، ورفعت الى عينين ملامها الاستسلام وقالت :

— أسترحمنى ... أسترضى أن تأخذنى معك ... بربك أقتذنى يا عبد الرحمن ...

انقضى الليل وانبلج النهار ، فعمت من قرأشى ووقفت بين يدى الله أماله الهداية
والتوفيق ... ثم ارتديت ثيابى وطرقت غرفة إلمام فوجدتها فى كامل حياتها ومهما حقيبتها
فأخذتها معى وغادرنا الجوى المسموم ... غادرنا المحيط الصاخب .

وفي هذه القرية حططنا رحالنا ، وتكففت إلمام على خدمتى والعناية بشؤونى وظلت
هل عهدا هذا حتى خطبها ابن عمى "فاضل" وكان قد بلغه من زوجة عمى خبر إلمام ،
فقدم الى فى زجولة فذة وإخلاص نادر ... ورجانى أن أقبله زوجا لما ...

وها قد مررت سنوات ثلاث أنجبت فيها إلمام ولدا هو قرة عين أبيه وأمه وهى لا تفتأ
تردد على مسمع ولدها أن يقنع بحياة الريف الطاهرة ، وأن يتعد جاهدا عن المدينة ...
وما تحويه من دنس وسخف وعار ... ما

سمير محمد

طبعت هذه المجلة بالطبعة الأميرية بيولاى

فى يوم ٢٤ من محرم سنة ١٣٦١

(٣٠ من يناير سنة ١٩٤٣) ما

مدير المطبعة الأميرية

محمد كبرى